

سیبِ رویہ

حیاتہ و کتابہ

بقلم

احمد احمد بروی

المدرس بكلية دار العلوم
بجامعة فؤاد الاول

obeykandi.com

سید یوہ

لہذا سناؤ احمد احمد بدوی

المدرس بكلية دار العلوم

۱۔ حیاتہ

اسمہ ونسبہ :

يعنى الباحث كثيراً بدراسة نسب من يترجم له ، إذا كان من وراء هذه الدراسة نور يضيء جوانب البحث ، أو يوضح نتيجة من النتائج ، أو يفسر أثراً من الآثار ، فقد يكون فى أسرة من الأسر توارث لنوع خاص من أنواع المعرفة ، أو استعداد للون من ألوان الثقافة والفنون ، ولما كننا نبحث فى نسب سيبويه فلا نجد شيئاً يلتقى بصيصاً من الضوء على حياة آبائه بل لا نعرف من هؤلاء الآباء إلا اثنين هما أبوه عثمان وجده قنبر ، وقنبر اسم عربى قح هو اسم جد الشاعر الحكيم بن معمر ، وأرجح أن ذلك هو ضبط اسم جده ، لا قبره كما فى كتاب نزهة الألباء فى الطبعة القديمة التى عثرت عليها ، ويدل على ذلك رثاء الزمخشري له كما سنرويه بعد ، فإن الشعر لا يسمح بالنطق بقنبرة وليست القاف مفتوحة كما ضبطت فى كتاب معجم الأدباء ، وسلفستر دى ساسى (ص ٤٠) وقد ترك ابن خلدون ضبط هذا الاسم مع شدة عنايته بضبط الأسماء ، ولعله لم يصح عنده ضبط يذكره . واكتفاء المؤرخين بهذين الاسمين من سلسلة نسبه ، قد يكون من حقنا أن نستنبط منه أن آباء وجده هما اللذان دخلا فى الاسلام ، وسميا بأسماء عربية ، ولم يكن لأجداده الفرس من الخطر ما يدفع المؤرخين إلى حفظ أسمائهم ،

وسيبويه وأسرته موال لبني الحارث بن كعب ، أو لآل الربيع بن زياد ، أو آل ولاؤه لآل الربيع بعد بني الحارث .

أما أمه فكانت فارسية كذلك بدليل أنها لقبت ابنها هذا اللقب الفارسي الصريح الذي عرف به في التاريخ ، وبدليل هجاء بشار له بأنه ابن الفارسية كما سيأتي ، وقد صار لقبه أشهر من اسمه وهو عمرو ، وكنيته وهي أبو بشر أو أبو الحسن ، ولا أريد أن أطيل في معنى هذا اللقب ، فيكاد مؤرخو العرب يجمعون على أن معناه رائحة التفاح ، ثم يعللون سبب هذا التلقب ، مدعين حيناً أنه كان جميلاً ذا جنتين كالنفاح ، وحيناً أنه كان جميل الرائحة حتى إن من يقربه كان يشم منه رائحة التفاح ، وهذه تعليلات لا قيمة لها ولا داعي إليها ، لأن الأسماء لا تعطل كما يقولون - ويقول المستشرق Huart في كتابه La Littérature arabe الأدب العربي إن هذه الصيغة قد يكون مدلولها التصغير في اللغة الفارسية ، فيكون معنى اللقب إذاً : النفاحة الصغيرة ، والرأى في ذلك للعلماء باللغة الفارسية . وسيبويه هو الطريقة التي ينطق بها هذا النوع من الأسماء المنتهية بويه كابن خالويه ونفطويه ، أما نطقه في لغته الأصلية فسيبويه بفتح الياء كما ضبطه ابن خلكان وصاحب إعرام الأعلام ، وبكسرهما كما ضبطه إيوارت ، وقد تعب المستشرق الفرنسي دى ساسي في ضبط هذه الكلمة وبيان معناها في كتابه An. Gra. Ara. والمرجع أيضاً علماء اللغة الفارسية .

سيبويه إذاً فارسي صريح من ناحية أمه وناحية أبيه ، وربما كانت اللغة الفارسية تحياً نوعاً من الحياة في منزله ، وعلى لسان أمه وأبيه ، ولعله كان على علم قليل أو كثير بهذه اللغة ، وهذا مالا أستطيع إثباته وإن كنت أستأنس له بهذا الفصل الذي عقده في كتابه للألفاظ المنقولة عن الأعجمية ، وإطراد الإبدال في حروف الكلمات الفارسية عند تعريبها لوجود حروف في الفارسية لا نظير لها في العربية .

كان كثير من حملة العلم ودراسي اللسان العربي في تلك العصور - من

الفرس . والمؤرخون يعللون ذلك بعزل كثيرة ، كان من جعلتها ولا ريب تطلع الشبان ذى المواهب إلى نيل المناصب السامية في دولة كانت تعتمد على سواعد الفرس ، ولقد كان هذا الباعث - بدون شك - واحداً من بين الأسباب التي حفزت سيبويه إلى دراسة اللغة العربية والتبحر فيها ، كما يدل على ذلك رحلته إلى بغداد فانها كانت رحلة يريد من ورائها المجد المادى والأدبى ، كما سنرى .

مولده :

لا سبيل إلى تحديد سنة ميلاده : فقد أغفلها المؤرخون جميعاً ، ولا محيص لنا من الفرض والتخمين للوصول إلى معرفة تلك السنة على وجه التقريب ، ذلك أن التاريخ يذكر من أساتذة سيبويه عيسى بن عمر الثقفى ، الذى يكاد المؤرخون يجمعون على أنه توفى سنة تسع وأربعين ومائة ، ويقول ياقوت فى كتابه معجم الادباء : « وما يكون قد أخذ عنه إلا وهو يعقل ، ولا يعقل حتى يكون بالغاً ، فاذا حسبنا لبلوغ سيبويه سن الرشد أربعة عشر عاماً ، كان لنا أن نضع ميلاد سيبويه فى العام الخامس والثلاثين بعد المائة ، ويكون عيسى بن عمر ، من أوائل الاساتذة الذين اخذ عنهم سيبويه .

أين ولد هذا النابغة ؟ مجهل التاريخ كذلك مكان هذه الولادة ، فهو لا يعرف البلد الذى رآه للمرة الاولى ، ولا يكاد يذكره إلا وهو طالب طالب للعلم ، يغدو إلى مجالسه فى مساجد البصرة ، وبعض المؤرخين يروى أنه ولد بالبيضاء التى يصفها ياقوت فى معجم البلدان بأنها مدينة مشهورة بفارس ، وأنها أكبر مدينة فى كورة إصطخر ، وإنما سميت بالبيضاء لان لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها ، وكانت معسكراً للسلين ، يقصدونها فى فتح إصطخر ، وهى مدينة تقارب إصطخر فى الكبر ، وهى تامة العماره خصبة جداً ، ينتفع أهل شيراز بميرتها ، وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ ، وينسب اليها كثير من العلماء المبرزين ، عد ياقوت منهم جملة صالحة .

أرجح هذه الرواية ، واستأنس لهذا الترجيح بما سنراه بعد من أنه رحل

بعد إخفاقه في بغداد إلى فارس ، عائدا ، في أغلب الظن إلى مسقط رأسه ، فوافاه الأجل بها أو قبل أن يصل إليها في شيراز .

نشأته :

- وإذا كان التاريخ يجهل بالتحديد منبته ، فهو يجهل كذلك نشأته الأولى ، ولا يعرف ماشداه الطفل من العلوم ، ولا ما أخذه من ألوان الثقافة ، وأغلب الظن أنه كان كنيته هذا العصر ، يقرءون القرآن ، ويحفظون شعر العرب وشيئا من السيرة النبوية وتاريخ الغزوات ، ثم يمضى من يريد التخصص في مادة فيما خصص نفسه له .

ويروى كثير من المؤرخين ، أن سيبويه لم يطلب النحو أول ما طلب ، بل كان يطلب الفقه والآثار ، أى الحديث وتاريخ الغزوات . قال نصر بن علي ، « كان سيبويه يستملى على حماد بن سلمة ، فقال حماد يوما : « قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » ، فقال له حماد : « لحنت ، ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه : « لاجرم ، لأطلبن علما لا تلحنتني فيه أبدا » . وطلب النحو ، ليس في هذه القصة شيء من الغرابة ، فقد يعن للمرء وهو يدرس ما يشعره بالنقص في ثقافته ، فيتجه لاستكمال هذا النقص ، وقد تظهر موهبته المتكونة في تلك المادة الجديدة ، فينبغ ويمتاز ، وبما لا ريب فيه عندي أن سيبويه لم يكتف بالنحو والفقه والآثار بل ضرب في كل علم من علوم عصره بسهم . قال ابن عائشة : « كنا نجلس مع سيبويه النحوى ، في المسجد ، وكان شابا ، نظيفا جميلا ، قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب في كل أدب بسهم ، مع حداثة سنه وبراعته في النحو ، فبينما نحن ذات يوم إذ هبت ريح ، فأطارت الورق فقال لبعض أهل الحلقة ، انظر أى ريح هي ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس ، فنظر ثم عاد ، فقال : « ما ثبتت على حال » ، فقال سيبويه : « العرب تقول

في مثل هذا : قد تذاءبت الريح ، وتذاءبت ، أى فعلت فعل الذئب ، وذلك أنه يحىء من هاهنا وهاهنا ، ليخيل ، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب ، . وإذا صحت هذه الرواية ، وهى ليست بعيدة الصحة ، دللتنا على منهج سيبويه التعليمى ، واعتماده على التطبيق العملى فيما يلقيه من القواعد والنظريات ، وإن علمه باللغة يدلنا عليه كثير من فصول كتابه ولا سيما أبواب الصرف ففيها من غريب الكلمات ما يدلنا على محصول كبير فى اللغة :

أساتذته :

أما العلم الذى كرس له معظم وقته ، ونبغ فيه وشهر به ، فهو علم النحو وكتابه فيه أول كتاب وصل إلينا فى ذلك العلم ، ويحفظ التاريخ من أساتذته فى تلك المادة سيد أهل الأدب وصاحب العقلية الجبارة الخليل بن أحمد ، وهو أعظم أساتذته أثراً فيه ، وأكثرهم اتصالاً به ، وأخذاً عنه ، وكان سيبويه يعد أبرع تلاميذ الخليل فى النحو ، وأوثق من حمل عنه ، ومنهم عيسى بن عمر الثقفى ، مؤلف كتابى الاكمال والجامع فى النحو ، وهو الذى أخذ عن أبى عمرو بن العلاء تلميذ يحيى بن يعمر حد تلامذة أبى الأسود ، ومنهم أبو زيد الأنصارى تلميذ أبى عمرو بن العلاء أيضاً ، وقد عاش أبو زيد هذا بعد سيبويه بنيف وثلاثين سنة ورأى المجد الذى أدركه تلميذه بتأليف الكتاب ، وقد نقل عنه سيبويه فيمن نقل ، فكان الأستاذ يقول كالمفتخر بذلك : كان سيبويه غلاماً يأتى مجلسى وله ذؤابتان فاذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بعريته فأنما يعننى ، ومنهم يونس تلميذ ابن العلاء أيضاً ، وقد عاش كذلك بعد سيبويه . وروى أنه لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب : إن سيبويه قد ألف كتاباً فى ألف ورقة من علم الخليل ، قال يونس ، ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ ا جيئنى بكتابه ، فلما نظر فيه ورأى كل ما حكى فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فى جميع ما حكاه عنه كما صدق فيما حكاه عنى ويخيل إلى أن الصلة لم تكن وثيقة بين سيبويه وأستاذه

يونس كما نلّس ذلك في تلك الرواية وفي رواية أخرى نقلها ياقوت . ومن أساتذته في اللغة أبو الخطاب الأخفش الكبير ، أستاذ أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وهو غير أبي الحسن الأخفش تلميذ سيبويه ، وإن كان أكبر من أستاذه سنا ، وروى سيبويه اللغة أيضا عن أبي عمر بن العلاء كما ذكر ذلك ياقوت في معجم (ص ١١ ص ١٦٠) .

زملاؤه :

ويذكر التاريخ من زملائه ثلاثة نبغوا على يد الخليل بن أحمد : هم النضر ابن شميل ، وكان أربع تلاميذ الخليل في اللغة ، ومؤرج العجل وكان أربعم في الشعر واللغة ، وعلى بن نصر ، وكان أربعم في الحديث .
مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة :

نشأ سيبويه بالبصرة ، وأخذ علم النحو عن أعظم علمائها قدرا ، ومعروف أن البصرة قد سبقت الكوفة في هذا اللون من الدراسة وانفردت به ، حتى أخذ هذا العلم عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي — أبو جعفر الرؤاسي ، وعنه وعن غيره من علماء البصرة أخذ السكسائي والفراء معاصرا سيبويه ، وقد بدأت مدرسة الكوفة في النحو منذ أنشأها الرؤاسي تناظر مدرسه البصرة . يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام (ص ٢٩٤) : بدأ الخلاف هادئا بين الرؤاسي في الكوفة والخليل في البصرة ، ويظهر أن العصبية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصبية السياسية التي ظهرت بين البلدين ، فقد كان الكوفيون يميلون في الجملة سياسيا إلى دولة بني العباس بينما كان البصريون منصرفين عنها ، (وقد ظهر في البصرة محمد بن الحسن العلوي الملقب بالنفس الذكية ، والذي حاربه المنصور ، وكان هو المرشح للخلافة قبل أن يأخذها العباسيون) .

أهم الفروق بين المدرستين

وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت

أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة في الرفع والنصب والجر والجزم وتحوها ، تلتزمها وتريد أن تسير عليها في دقة وحزم ، وإذا كانت اللغات دائما لا تلتزم القواعد العامة دائما ، بل فيها مسائل لا يمكن أن تجرى على القاعدة وخصوصا اللغة العربية التي هي لغات قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ... أراد البصريون ، تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فإذا ثبت صحتها قالوا إنها تحفظ ، ولا يقاس عليها ، بل جرموا على أكثر من ذلك نخطئوا بعض العرب في أقوالهم إذا لم تجر على القواعد فالبصريون إذا رأوا (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر غالبا ، ثم رأوها في بعض المواضع لا تسير هذا السير مع الوثوق بصحة ماورد نحو : (إن هذان الساحران) ألزموا الناس باتباع الأكثر الأغلب ، فهم قد فضلوا القياس وآمنوا بسلطانه وجروا عليه ، وأهدروا ما عداه ...

أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك ، ورأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ، ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة ، قال السيوطي في بغية الوعاة : إن الكسائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك ...

فإذا أضفت إلى ذلك أن الكوفيين كانوا أكثر رواية للشعر ، وأن الشعر المصنوع لديهم أكثر من الشعر المصنوع عند البصريين أدركت مقدار الخلف بين البصريين والكوفيين في مسلكهم ...

وزى في هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ...

وكان البصريون أكثر اعتداداً بأنفسهم ، وأكثر شعوراً بثقة مايروون ، وأشد ارتياحاً فيما يرويه الكوفيون لذلك كان الكوفي يأخذ عن البصري ، ولكن البصري يتحرج عن أن يأخذ عن الكوفي . ١٠ هـ كلام الاستاذ أحمد أمين .

وسوف نرى أثر هذه النزعة التعليلية القياسية في كتاب سيبويه ، وسنرى أن اعتداد سيبويه بالقياس قد كان من الاسباب التي جعلته يخفق في رحلته إلى بغداد .

رحلته إلى بغداد

متى رحل سيبويه إلى بغداد ؟ ولم ؟ وفي مجلس من دارت المناظرة بينه وبين الكسائي ؟ وكيف أديرت ؟ وبم انتهت ؟ ولم انتهت كذلك ؟ وما الرأي في المسألة التي كانت موضع النزاع بينهما ؟ وما نتيجة إخفاق سيبويه ؟

أما أن سيبويه رحل إلى بغداد ، ودارت بينه وبين الكسائي مناظرة فذلك مالا سبيل إلى الشك فيه ، ولكن متى رحل إلى بغداد ؟ لم يحدد التاريخ هذه السنة ، وكل ما يذكره أن الرحلة كانت في عهد الرشيد ، وأنها كانت إلى يحيى بن خالد البرمكي ، ثم يذكر أن الرحلة قد تمت ولسيبويه من العمر نيف وثلاثون سنة ثم مات بعد هذه الرحلة بقليل . والبعض يذكر أنها تمت ولسيبويه نيف وثلاثون سنة ، ولكنه عاش بعدها نحو عشر سنوات ، ولا سبيل إلى استخلاص وجه الحق من هذه الأقوال المتضاربة ، والذي أرجحه — لأن أكثر المؤرخين عليه — أن سيبويه لم يعمر طويلا بعد هذه الرحلة ، فاذا أضفنا إلى ذلك أنه مات — كما سألرجح ذلك فيما بعد — وعمره نيف وأربعون سنة ، كانت رحلته إلى بغداد بعد الأربعين من عمره حول سنة ١٧٩ هجرية .

أما الباعث على تلك الرحلة فالطموح إلى نيل المجد المادي والادنى ، فقد كان الكوفون إلى ذلك الحين يستاثرون بهبات الخلفاء والقيام على تربية أولادهم ، فطمع سيبويه في أن يفتح باب الخلفاء والامراء للصربين ، وأن يشارك الكوفيين حظهم ، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها مؤمنا بتفوقه وقدرته على الغلب والظفر فأراد أن يبرهن للامراء على أن البصريين يفوقون الكوفيين ويزونهم ، فعمد إلى رئيسهم مؤمنا بأن انتصاره عليه انتصار

للبصرة على الكوفة ، ومن وراء هذا النصر يجلس هو على قمة المجد الأدنى ، ويظفر بما يرغب من المال والثراء ؛ ورغبته فيهما واضحة ، حتى ليرى أنه بعد أن أخفق في مناظرته قال الكسائي ليحيى : ولهجة الشامة والانتصار بادية عليه ، بعد أن كان قلبه يرتجف عندما سمع برغبة سيبويه في الحضور إلى بغداد - قال : « أصلح الله الوزير ، إنه قد وفد إليك من بلده مؤملاً فإن رأيت ألا ترده خائباً ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وشهرة البرامكة بالبذل والعطاء هي التي - بلا ريب - جذبت إليهم سيبويه .

أما المناظرة فكانت في مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، وعنده ولداه جعفر والفضل ، وأفضل الروايات في وصف هذه المناظرة ما ذكره ياقوت في معجمه نقلاً عن الاخفش والمبرد وثلعب ، قالوا : « قدم سيبويه إلى العراق على يحيى بن خالد البرمكي ، فسأله عن خبره ، فقال : جئت لاجتماع بيني وبين الكسائي ، فقال : لا تفعل ، فإنه شيخ مدينة السلام ، وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من في المصر له ومعه ، فأبى إلا أن يجمع بينهما (ومن ذلك تبدو رغبة سيبويه في التحدي والغلب وثقته بنفسه) فعرف الرشيد خبره ، فأمره بالجمع بينهما فوعده بيوم ، فلما كان ذلك اليوم غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد ، فوجد الفراء والاحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه ، فسأله الاحمر عن مائة مسألة فما أجابه عنها بجواب إلا قال : أخطأت يا بصرى ، فوجم سيبويه وقال : هذا سوء أدب ؛ ووافى الكسائي وقد شق أمره عليه ، ومعه خلق كثير من العرب ، فلما جلس قال له : يا بصرى (ومن هذه النسبة يظهر أن المناظرة لم تكن مناظرة شخصية ، بل كان يلاحظ فيها أنها مناظرة بين البصرة والكوفة ، ولذلك أهمل ذكر اسم سيبويه في مخاطبته ، واستبدل بـ «يا بصرى» كيف تقول : خرجت وإذا زيد قائم ؛ قال خرجت وإذا زيد قائم ؛ قال فيجوز أن تقول : خرجت فإذا زيد قائماً ، قال : لا ، قال الكسائي : فكيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي ، أو فإذا هو إياها ؟

فقال سيبويه : فاذا هو هي ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائي : لحتت وخطأه الجميع . وقال الكسائي : العرب ترفع ذلك كله وتنصبه : ودفع سيبويه قوله ، فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما ، وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما : وهذا موضع مشكل ؟ فقال الكسائي : هذه العرب بيابك ، قد جمعهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت وأمر بإحضارهم ، فدخلوا ، وفيهم أبو فقحس ، وأبو دثار ، وأبو ثروان ، فاستلوا عن المسائل التي جرت بينهما فتابعوا الكسائي .

هذه هي الرواية المعقولة للطريقة التي دارت بها المناظرة بين الكسائي وسيبويه ، وأغلب الظن أن الأعراب الذين استشهد بهم الكسائي ، قد نطقوا بتلك الجملة كما نطق ، وأغلب الظن أيضا أن بعض العرب ينطق بالجملة كذلك . وقد قال أصحاب سيبويه إن الأعراب الذين شهدوا للكسائي من أعراب الحطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم . أما تلك الرواية التي تزعم أن الأعراب اكتفوا بقولهم الحق ما قال الكسائي ، وهو كلام العرب ، ولم ينطقوا كما نطق الكسائي ، فغير معقولة ولا مقبولة ، فقد كان سيبويه يعلم أن العرب الخالص في ذلك الحين يسبق الصواب إلى ألسنتهم .

ولم يكن سيبويه من قلة الذكاء بدرجة أنه لا يطلب من الأعرابي أن يتكلم ، ويرجح الاستاذ أحمد أمين أن أصعب السياسة قد لعبت في هذه المسألة ، ويروى ابن خليكان ما يفهم منه أن المسألة كانت مدبرة ضد سيبويه البصري ، وكان الأمين تلميذ الكسائي من القائمين في هذا التدبير ، وأنهم أحضروا أعرابا ، مروا ألسنتهم على أن تنطق بما ينطق به الكسائي فيتم الأمر ويحكم للكوفة على البصرة ، وفي ذلك إذلال لها أيما إذلال . والذي أرجحه أن المسألة أبسط مما يتصور حتى مع فرض أن إصبع السياسة قد لعبت فيها ، ذلك أن الكسائي يعلم أن البصريين ، وعلى رأسهم سيبويه ،

لا يعتدون بغير القياس ، ولا يقرون ما يخالفه ، وإن ثبت سماعه ، ولا يجيزون القياس عليه ، وكان من اليسير على الكسائر أن يأتي بمسألة تخرج عن القياس ولا يعدم أن يجد قوماً يطقون كـ *يذو* ، ونحن نعلم أن بعض العرب قد شذ عن أشهر ما هو مألوف في اللغة ونظم الكلام .

والآن ، ما وجه الصواب في هذا الخلاف ؟ لاشك أن القياس هو ما قاله سيبويه ، وهو المتمشى مع المنطق فهو مبتدأ ، وهي خير . وهما ضمير ارفع . وأما خرجت وإذا زيد قائم فيجوز في قائم الرفع والنصب ، وإنما جاز فيها الوجهان وامتنع في فإذا هو هي لأن قائما تنصب على الحال وهو نكرة أما إياها فمعرفة لا تصلح أن تكون حالا فيتعين أن تأتي بالضمير المعرفة خبراً .

حبسة لسانه

يرجع إخفاق سيبويه في هذه المناظرة فضلاً عن التحامل عليه ، وأنه لم يستصحب معه أنصاره ، ولا يؤمن بالقياس على الشاذ - إلى أنه لم يكن من الفصاحة بحيث يستطيع التأثير في سامعيه ، ويكاد مؤرخو سيبويه يجمعون على أنه كان ألكن ، حدث أحمد بن معاوية قال ذكر سيبويه عند أبي فقال : عمرو بن عثمان ، قد رأيت ، وكان حدث السن ، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل ، وقد سمعته يتكلم ، وينظر في النحو ، وكانت في لسانه حبسة ونظرت في كتابه فرأيت عليه أبلغ من لسانه وكانت هذه اللسنة سبباً قوياً في إخفاقه في المناظرات . فإنه لم يخفق في مناظراته للكسائي فحسب ، ولكنه أخفق في مناظرة أنرى دارت بينه وبين الأصمعي ، وكان الحق فيها معه ، ولكنه هزم بسبب هذه اللسنة في لسانه : حدث أبو حاتم السجستاني قال : دخلت على الأصمعي في مرضه الذي مات فيه فسألته عن خبره ، ثم قلت له : في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه قال : « سل ، فقلت : « حدثني بما جرى بينك وبين سيبويه من المناظرة ، فقال : والله لو لا أني لا أرجو الحياة من مرضتي هذه ما حدثتك ، إنه عرض علي شيء من الآيات

التي وضعها سيبويه في كتابه . ففسرناها على خلاف ما فسرته ، فبلغ ذلك سيبويه ، فبلغني أنه قال : لا ناظرته إلا في المسجد الجامع ، فصليت يوماً في الجامع ، ثم خرجت فتلقاني في المسجد فقال لي : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذي أنكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولم فسرته على خلاف ما يجب ؟ فقلت له : ما فسرته إلا على ما يجب ، والذي فسرته أنت ووضعته خطأ ، تسألني وأجيب ، ورفعت صوتي فسمع العامة فصاحت ، ونظروا إلى لكتته ، فقالوا : لو غلب الأصمعي سيبويه ، فسرني ذلك ، فقال لي : إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده في وجهي ومضى . ثم قال الأصمعي : يا بني ، فوالله لقد نزل بي منه شيء وددت أني لم أتكلم في شيء من العلم . فأنت ترى أن لكتته سبب هزيمته .

ولقد كان لمناظرة سيبويه والكسائي أثرها في نفس كثير من العلماء كانوا يؤمنون بصدق سيبويه ، وخطأ الأعراب الذين أخذ عنهم الكسائي ، ومن هؤلاء العلماء يحيى بن المبارك اليزيدي الذي قال حينما سمع استشهاد الكسائي بأعراب الحطمية ، وهي قرية على فرسخ من بغداد منسوبة إلى السري بن الحطم أحد القواد :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه على لغى أشياخ قطر بل

وقد علق المرحوم الأستاذ عبد الخالق على ذلك قائلاً : إن الفساد الذي ينسب إلى الكسائي ربما كان واقعاً ، فإن القرى التي يسكنها هؤلاء (الأعراب) كانت مرتعا للبطالين والخمارين ، وهي خليط من قوم لا يصح الاعتماد عليهم في اللغة ، وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان مثل هذه الصفات ، هذا وإن أبا نواس قد شهر قطر بل التريبة من بغداد بالخمر والخمارين .

ومن هؤلاء الذين ثاروا لهزيمة أستاذهم الأخفش الأوسط راوى كتاب سيبويه ، قال : ولما ناظر سيبويه الكسائي ورجع ، وجه إلى فعر فني خبره معه ومضى إلى الأهواز ، فوردت بغداد ، فرأيت مسجد الكسائي ، فصليت

خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته وقعد ، وبين يديه الفراء والاحمر وابن سعدان سلبت ، وسأله عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته في جميعها ، فأراد أصحابه الوثوب على فمهم ، ولم يقطعني مارأيتهم عليه عما كنت فيه ، فلما فرغت قال لي : بالله ، أما أنت أبو الحسن سعيد ابن مسعدة ؟ قلت : نعم فقام إلى وعانقني ، وأجلسني إلى جنبه ، ثم قال : لي أولاد أحب أن يتأدبوا بك ، ويخرجوا عليك ، وتكون معي غير مفارق لي فأجبتة إلى ذلك ، فلما اتصلت الأيام بالاجتماع ... قرأ على كتاب سيبويه سرأ ووهب لي سبعين ديناراً ، وهكذا استطاع الكسائي - ويظهر لي أنه كان ذهية - أن يلوى الأخفش عن قصده ، وليس عليه في ذلك من بأس بعد هزيمة رأس البصريين .

كان سيبويه يؤمل كبار الآمال على هذه الرحلة ، ويرجو أن يتنصر البصرة على الكوفة ، وأن ينال المسكاة التي يجد نفسه جديراً بها ، فما هو إلا أن وجد آماله تنهار أمام عينيه .

بانتصار الكسائي عليه ، انتصاراً يعده سيبويه مختلساً فأزمع الرحلة عن بغداد . إلى أين يتجه ؟ أ إلى البصرة ، وقد حبط فيما كان يبنيه لها من المجد ؟ أم إلى الكوفة ؟ وهو أعظم منافس لأساتذتها فضلاً عن أنه لا يثق بعلمائها ، ويرى أن ما يستنبطون منه قواعدهم النحوية مكذوب مختلق ، أم يبقى في بغداد التي شهدت أمله ينهار ؟ لا سبيل إلى شيء من ذلك ، فأزمع الرحلة إلى وطنه يقيم فيه عله يجد برد الراحة فيستريح . أزمع سيبويه الرحلة ، ولما سلكها رحلة المنطوى على الضغن ، رحلة الذي لا ينسى أن له حقاً في الحياة والمجد فحبل بينه وبين ما يشتهي

وفاته :

ويظهر أن الصدمة كانت شديدة عليه ، فلم يحتملها ولم يلبث أن مات غماً بالذرب ، وهو فساد المعدة ، وأعجله الموت فلم يصل إلى بلده البيضاء بل وافاه الأجل في شيراز أو بساوة بالقرب منها سنة ١٨٠ هجرية . وما يدل

على أثر الصدمة في نفس سيبويه أنه كان يتمثل عند موته قائلا :
يؤمل دنيا تبتقى له فمات المؤمل قبل الأمل
روى الأصمعي أن سيبويه مدفون بشيراز ، وأنه قرأ على قبره هذه
الآيات ، وهي لسليمان بن يزيد العدوي :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار فأسلوك وأقشعوا
تركوك أوحش ماتكون بقفزة لم يؤنسوك ، وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا
وذلك هو ما أرجحه من تلك الروايات التي نجدها في السكتب التي
أرخت لسيبويه ، فإن نافع وحده يذكر أنه مات بالبصرة سنة
إحدى وستين ومائتين ، وهو قول لم يؤيده فيه أحد ، وغير معقول أيضا ،
لأن سنة حينئذ لم تكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين بكثير ، وهو ما لم يقله
مؤرخ ، وروى ابن النديم أنه عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس ، وعودته إلى
البصرة مشكوك فيها بعد هذا الاختفاق .

وتحددنا سنة وفاته بمائة وثمانين بتحديد ترجيحي كذلك ، وحسبي أن
أذكر أن بعض الرواة يضعها سنة إحدى وستين ومائة ، وابن الجوزي
يضعها سنة أربع وتسعين ومائة والفرق بين التاريخين ثلاث وثلاثون سنة ،
أما سبب ترجيحنا فإن أكثر الرواة عليه ، ويرجح ابن الأنباري بدليل
أنه مات قبل الكسائي والكسائي مات سنة ثلاث وستين ومائة .

كانت سن سيبويه عندما توفي تزيد على الأربعين ، وعلى حسب ما حددناه
تكون سنة زهاء خمس وأربعين سنة ، وهو المعقول بموازنة التواريخ ، فليس
بمعقول إذا ان نقبل قول الأستاذ أحمد أمين الذي يضع تاريخ وفاته في
الثمانين بعد المائة ، ثم يقول : إنه مات ، وعمره نيف وثلاثون سنة ، لأننا
قلنا إنه أخذ عن عيسى بن عمر الذي توفي سنة تسع وأربعين ومائة ، فيكون
سيبويه حينئذ في المهد صبيًا .

أخلاقه ومواهبه :

كان سيبويه ذكياً ، متوقد الذكاء ، ذا عقل منطقي متزن يحسن التفريع والتعليل ، وكتابه خير دليل على ذلك . ثم هو طموح لم يرض بحظه في البصرة وأنه أصبح شيخها ، بل أنى إلا أن يدون وحيد دهره لاعالم فوقه في العالم الاسلامي ، وإلى جانب طموحه كان واثقاً بنفسه تمام الثقة يؤمن بقدرته في النحو قدرة فائقة . عن أبي عثمان المازني ، قال حدثني الأخفش قال : حضرت مجلس الخليل ، فجاءه سيبويه ، فسأله عن مسأله ، وفسرها له الخليل فلم أفهم ما قال ، فقمت وجلست له في الطريق ، فقلت له : جعلني الله فداك ، سألت الخليل عن مسألة فلم أفهم ما رد عليك ، ففهمني ، فأخبرني بها ، فلم تقع لي ولا فهمتها ، فقلت له : لا تتوهم أني أسألك إعناتاً ، فاني لم أفهمها ولم تقع لي ، فقال له : ويلك ، ومتى توهمت أني أتوهم أنك تعنتني ، ثم زجرتني وتركتني ومضى ، وذهابه إلى بغداد وطلبه مناظرة الكسائي ، تدلنا على هذا الخلق الثابت في نفسه ، ولسكنه لم يكن مع ثقته بنفسه ، وطموحه من هؤلاء المتعجرفين الذين تمل عشرتهم ويكره قرهم ، بل كان محبباً إلى نفس سامعيه ومحالسيه ، والروايات كثيرة تدل على ظرفه وكياسته حدث ابن النطاح قال : كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه ، فقال الخليل مرحباً بزار لا يمل . قال : وكان كثير المجالسة للخليل وما سمعت الخليل يقولها لغيره .

وكان إلى جانب ذلك - على ما يظهر له - مفرط الأس إذا ينس ، فلم يستطع أن يقاوم الصدمة التي منى بها عندما أخفق في رحلته إلى بغداد ، ولعله أراد أن يحارب الداس الذي حل به ، فقليل إنه سأل عن أمير له في النحو ارب ، وخرج يريد بني طاهر في خراسان - كما يروى - ولكن الألم الذي حز في نفسه لم يفارقه حتى مات .

هذا وقد تحدثنا عن لسكنته فيما مضى وبيننا أثرها في إخفاقه في المناظرات .

اسرته :

أنزوج سيبويه ، وكون بيتا ؟ أم وهب نفسه للعلم وكرس حياته له ؟ لا يروى التاريخ شيئا يتعلق بذلك ، وأغلب الظن أن سيبويه عاش حياته كلها للعلم والتعليم ، ونستأنس لذلك بأن الروايات التي تتحدث عن وفاته ، وتصف لحظاته الأخيرة ، لا تتحدث عن زوجة ولا ولد ، وكل ما يذكره التاريخ له من الأقارب أخ . يظهر أن الحب والمودة كانت تربطهما أوثق رباط ، ولعل سيبويه لم يكن له أخ سواه . قالوا : ولما اعتل سيبويه وضع رأسه في حجر أخيه فبكى أخوه لما رآه لما به ، فقطرت من عينه قطرة على وجه سيبويه ، ففتح عينه فرآه يبكي فقال .

أخين كنا فوق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ، ومن يأمن الدهرا لم يترك سيبويه ذرية من بعده ، ولكنه ترك ذكرا مخلدا ، واسما سوف يبقى مابقيت اللغة العربية ، وما بقى دارس لهذه اللغة ، ولقد نال سيبويه في حياته من الشهرة وديوع الصوت ما لم ينله قبله إلا أستاذه العظيم ، الخليل ابن أحمد ، بل لقد صار اسمه يذكر بجانب أستاذه كلما تحدث الناس عن أعظم علماء النحو ، ولم تقف شهرته عند العلماء ، بل لقد كان مشهورا كذلك بين جمهور الشعب يتأثرونه ويقلدونه ، حدث التاريخ عن المبرد عن الزواري أني زيد قال . قال رجل لسماك بالبصرة . بكم هذه السمكة ؟ قال بدرهمان ، فضحك الرجل ، فقال سماك . ويلك ، أنت أحق ، سمعت سيبويه يقول ، ثمنها درهمان .

تلامذته :

ترك سيبويه من بعده تلاميذه ، وكان من أشهرهم أبو الحسن الأخفش الأوسط والناسي ، وأبو علي قطرب ، وترك كتابه العظيم الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

من أرخ لسيبويه

لم يدرس سيبويه إلى اليوم الدراسة التفصيلية التي يستحقها إمام ألف

أول كتاب وصل إلينا في قواعد اللغة . وأقدم ترجمة اهتمت إليها لسليويه في كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وستين للهجرة ، وهي ترجمة موجزة تحدث فيها عن اسمه وبعض أساتذته وزملائه وتلامذته وكتابه ولم يحدد بالزمن سنى حياته ووفاته ولا مكان موته . وفي كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ خمس وثمانين وثلاثمائة ترجمة موجزة كذلك ، وتحدث فيها عما تقدم ، وأضاف إليه خبر رحلته إلى بغداد وحدد سنة وفاته .

كنا نطمع من هذين العالمين أن يشفيا غليلنا من سليويه لقرب عهدهما به ولكن منهما في التأليف وخطتهما التي اتبعها في الإيجاز حرمتنا من معارف كثيرة كانا نستطيعان أن يقدماهما إلينا .

وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية ، ترجمة لسليويه ، نهج فيها المؤلف منهجه في ذكر الروايات المختلفة بأسانيدھا وفي هذه الترجمة بعض الطول وهي تحوى روايات متعارضة عن مصادر مختلفة .

وفي القرن السادس للهجرة كتب صاحب نزهة الألباء المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهو كوفي يتعصب للسكوفيين - فصلا يشبه إلى حد كبير فصل الخطيب البغدادي ، ولم يبين وجه الصواب في الخلاف بين سليويه والسكساني ، ولكنه لم يستطع أن ينكر مواهب سليويه ولا فضل كتابه . أما صاحب معجم الأدباء المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فقد عقد لسليويه فصلا مطولا ، هو أطول ما كتب عن سليويه إلى ذلك الحين ، وفيه عيوب التأليف في تلك العصور فلا ترتيب ولا تبويب ، ولكنها روايات تجمع ، ينتقل فيها من موضوع إلى غيره بلا صلة ولا رباط ، وإن كانت له تحقیقات نافعة في كثير من الأحيان ، كتحقيق سن سليويه عند وفاته كما تناول الحديث عن سليويه في مواضع شتى وفي هذا الكتاب نقل لرواية لم يحصها وتركها كما رواها قال . نقلت من خط أبي سعد السمعاني ، مما انتخبه من طبقات أهل فارس وشيراز ، تأليف الجاحظ

أن عبد الله محمد بن عبد العزيز الشيرازي القصار . بشير بن سعيد ، وقيل عمرو بن عثمان بن قنبر ، يكنى أبا بشر سيبويه النحوي ، (أخذ) عن الخليل بن أحمد ، وهو من الحارث بن كعب ، مات وكان على مظالم فارس ، وقبره في شیراز ، لم يزد في ترجمته على هذا . وأقول أنا بدوري إن ياقوت لم يزد عن أن نقل هذه الترجمة ولم يمحسها ، فهل ولي سيبويه مظالم فارس ؟ أستبعد ذلك ، إذ لم يرو غيره من المؤرخين نبأ كهذا ، والمترجم يخطئ حتى في اسم سيبويه مما يجعل هذه الترجمة تافهة قليلة القيمة .

عن هذه المكتبة الخمسة أخذ ابن خلكان الذي توفي سنة ٦٨١ هـ ، وقد عقد له فصلا موجزا ليس فيه من جديد سوى ضبط اسم سيبويه في العربية والفارسية ، وأخذ السيوطي أيضا المتوفى سنة ٩١١ هـ في كتابه بغية الرعاة ، وأخذ المحدثون من أمثال جورجى زيدان والرافعى والاسكندرى .

والأستاذ أحمد أمين في كتابه منحنى الاسلام قد تناول بالحديث نشأة النحو والتأليف فيه ومدرسة البصرة والكوفة ، وتحدث حديثاً مجملاً عن كتابه سيبويه وذكر أن دراسة الكتاب وتحليله يحتاجان إلى فصل مطول .

وقد عرف المستشرقون سيبويه ومكتب عنه وعن مدرسته البصرة والكوفة وعن تلاميذه وأساتذته المستشرق Huart في كتابه La Littérature arabe الأدب العربى وتحدث عنه وعن كتابه وحقق اسمه ، وترجم بعض فصول كتابه إلى الفرنسية المستشرق المعروف Silvestre De Sacy في كتابه Anthologie Grammaticale arabe مختارات من قواعد اللغة العربية وذكر الأستاذ جورجى زيدان في كتابه أن المستشرق ديرنبورج طبع كتاب سيبويه في مجلدين كبيرين في ١٠٠٠ صفحة كبيرة ، عليها تعاليق مفيدة ومقدمة باللغة الفرنسية عن مسودات هذا الكتاب ومظانها وما قيل فيها ، وقد نقله

إلى الألمانية الدكتور ياهن وطبع في برلين ، والآن يجدر بنا أن نزن كتاب سيبويه وأن ندرسه ونحلله لنعرف قيمته الحقيقية .

ب - كتاب سيبويه

موقف الأقدمين منه

قال الجاحظ . أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، ففكرت في شيء أهديه له ، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه ، وقلت له أردت أن أهدي لك شيئاً ، ففكرت ، فاذا كل شيء عندك ، فلم أر أشرف من هذا الكتاب ، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء ، قال . والله ما أهديت إلى شيئاً أحب إلى منه .

وذكر صاعد بن أحمد الجياني من أهل الأندلس في كتابه قال . لا أعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب . أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني كتاب أرسطاطاليس في علم المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له .

وقال السيرافي . كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علماً عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه وقرأ نصف الكتاب ولا يشك أنه كتاب سيبويه . وكان محمد بن يزيد المبرد إذا أراد مرید أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له . هل ركبت البحر تعظيماً له واستصعاباً لما فيه .

وكان المازني يقول من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح .

وقال الزمخشري في هذا الكتاب .

ألا صلى الله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر
تلك كانت نظرة الأقدمين إلى كتاب سبويه نظرة التقدير والتعظيم ،
ولم يقتصر اجلال الكتاب على المعجبين بسبويه بل كان خصومه في تقديره
والانتفاع به كالحبين . حدث الأخفش - كما سبق أن رويناه - أنه قرأ
كتاب سبويه على السكسائي في جمعه ، فوهب له سبعين ديناراً ، قال وكان
السكسائي يقول له . هذا الحرف لم أسمع فاكته لي فأفعل ، .

قيل ، فكان الجاحظ سمع هذا الخبر ، فقال مما يعدده من غر أهل
البصرة على أهل الكوفة : هؤلاء يأتونكم بفلان وفلان ، وبسبويه الذي
اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله ؟

وحدث أبو الطيب اللغوي عن أبي عمر الزاهد قال . قال ثعلب يوماً في
مجلسه . مات الفراء (وهو كوفي كما نعلم) . وتحت رأسه كتاب سبويه .
والآن لكي نستكمل البحث نرى أن ندرس النقاط الآتية .

- ١ - متى ألف سبويه كتابه ؟ ٢ - متى ظهر الكتاب للجمهور ؟
 - ٣ - من روى هذا الكتاب ؟ ٤ - ثم ندرس خطة المؤلف وأسلوب عرضه
 - ٥ - ونبحث بعد ذلك مصادر الكتاب ، وشخصية المؤلف ، وأثر الكتاب
في دراسة النحو ، وآراء منتقديه ، ٦ - ونختم البحث برأينا في الكتاب .
- متى ألف سبويه كتابه ؟

تاريخ تأليف هذا الكتاب مجهول كل الجهل ، ولم تذكر كتب التاريخ
أن الكتاب ظهر في حياة مؤلفه ، فالسيرا في والمؤرخون من بعده قدذكروا
أن الكتاب لم يظهر في حياة سبويه ، ولكنه ظهر بعد وفاته ، والذي نقله
عنه ورواه للجمهور تلميذه الأخفش ، قال السيرا في : والطريق إلى كتاب
سبويه الأخفش ، وذلك أن كتاب سبويه لا نعلم أحداً قرأه على سبويه ،
ولا قرأه عليه سبويه ، ولكنه لما مات سبويه قرأه الكتاب على أبي الحسن
الأخفش ، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر والجزمي ، وأبو عثمان المازني . وقال

ياقوت في معجمه : وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كل الاستحسان ، فتوهم الجرمي والمازني أن الأخفش قد هم أن يدعى الكتاب لنفسه ، فتشاورا في منع الأخفش من ادعائه ، فقالا : نقرؤه عليه ، فاذا قرأناه عليه أظهرناه ، وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه ، فأرغبنا الأخفش وبذلا له شيئاً من المال على أن يقرأه عليه ، فأجاب ، وشرعاً في القراءة ، وأخذنا الكتاب عنه ، وأظهرناه للناس .

وتلك قصة تدل على أن الأخفش هو الراوي الوحيد لكتاب سيبويه ، ويفهم منها أن كثيراً من الناس كان يعلم بتأليف سيبويه للكتاب ، بل أرجح أن بعض أجزاء الكتاب كان معروفاً للجمهور ، وكذلك بعض ما استشهد به سيبويه من الشعر بدليل ما ذكرناه من أن الأصمعي وجه هذا الشعر توجيهاً غير توجيه سيبويه ، واضطر سيبويه إلى مناظرته كما ذكرنا ، وإذا فالذي كان مجهولاً هو الكتاب كاملاً ، أما بعضه فكان معروفاً عند الجمهور ، ولو أن أمر الكتاب كان مجهولاً بالكلية ، ولم يكن يعلم أحد أن سيبويه قد ألف كتاباً (كان من الميسور الشك في نسبته إلى مؤلفه من ناحية ، وهو ما لم يروه مؤرخ ، بل الإجماع منعقد على أن هذا الكتاب لسيبويه ، ومن ناحية أخرى كان من الميسور على الأخفش أن يستلحق الكتاب وينسبه إلى نفسه ، وهو ما لم يستطع أن يفعله .

غير أن عدم ظهور الكتاب كاملاً طول حياة المؤلف يجعل من حقنا أن نستنبط منه أن سيبويه ظل إلى آخر أيام حياته يراجع مؤلفه ، يزيد فيه وينقص ويقدم ويؤخر ، غير راض أن يظهره للجمهور إلا بعد أن يدون قد ارضى نفسه عنه ، فعاجلته المنية قبل أن يوفي علم هذه الغاية ، ويؤيد هذا الاستنباط أيضاً أن الكتاب خال من مقدمة يضعها المؤلف في رأس كتابه ليقدم بها الكتاب للجمهور ويذكر فيها غرضه وخطته ، وخال من خاتمة تنهي باقتهام المؤلف من فكرته بل إن المؤلف لم يضع لكتابه اسماً يميزه كما

هو المؤلف ، مما يدل على أن سيبويه قد مات من غير أن يضع الكتاب في ثوبه النهائي .

والذى يابوح له أن سيبويه قد استغرق في تأليف كتابه وقتاً طويلاً ، وأنه قد بدأه في وقت مبكر ، فكان يقيد ما يسمعه من أساتذته وما يراه فيما ألف قبله من الكتب ، ويجمع المتفرق ويؤلف من المتناثر مجموعاً كاملاً ، وربما كان يعرض ما يكتبه على الأخفش الذى كان تلميذه وفي الوقت نفسه أخذ النحو عن أخذ سيبويه عنهم . وهنا نستبعد على رجل مثل الأخفش في علمه ، وفي ثقة أستاذه به أن ينسب الكتاب إلى نفسه ، ولكنه وهم سبق إلى الجرمى والمازنى .

ويظهر لى أن الكتاب قد ظهر للجمهور بعد موت سيبويه بقليل ، فان يونس بن حبيب قد راجع الكتاب ، وأقر بصدق ما رواه سيبويه عنه ، كما سبق أن ذكرنا ، ويونس قد مات بعد عامين من وفاة تلميذه . كما أن السكسائى الذى توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة قرأ الكتاب على الأخفش سرا ، كما روى الأخفش .

هذا ويروى الأستاذ Huart أن الأخفش قد عارض أستاذه في بعض آرائه ، ولكنه لم أعثر فيما بين يدي من كتب على هذه الاعتراضات .
خطة المؤلف :

الكتاب سيبويه وحده وغرض معين ، لأن موضوعه جمع القواعد النحوية والصرفية ، وهنا يحسن أن نشير إلى أن كتاب سيبويه لا يقتصر على ذكر قواعد النحو فحسب ، بل شمل قواعد الصرف أيضاً ففيه أبواب لأوزان الكلمة ، وأنواع الاشتقاق المختلفة والتثنية والجمع والإعلال والإبدال ، والتصغير والنسب وغير ذلك من أبواب التصريف .

والكتاب مقسم إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة ، كل باب منها يعالج ناحية (من نواحي القواعد ، وليس في الكتاب مقدمة كما ذكرنا ، بل أوله في صميم الموضوع إذ يتحدث عن أقسام الكلمة ، فيقول . هذا باب علم ما الكلم من

من العربية ، والكتاب جزءان . يحتوى الجزء الأول منهما عن الكلم وأقسامه ، والفاعل ، والمفعول ، وما يعمل عمل الفعل ، وإعمال المصدر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة والحال والظرف والجر ، والتوابع ، والمعرفة والنكرة ، والمبتدأ والخبر ، والأسماء التى بمنزلة الفعل ، والأحرف المشبهة به ، والنداء ، والترخيم ، والنفي بلا ، والاستثناء ، وباب لكل من أحرف الجر ، وفى الجزء الثانى ما ينصرف وما لا ينصرف ، والنسب والتصغير والمقصور والمماود ، والجمع ، والوقف ، والإعلال والإبدال ووزن الكلمات ولكن ترتيب الكتاب يخالف النهج الذى تتبعه ويتبعه المؤلفون المتأخرون فيما يأتى .

أولا . ترتيب أبواب الكتاب يخالف ما عهدناه من الترتيب فيما تتداوله من الكتب التى بين أيدينا ، فلا يأتى بالمرفوعات كلها على حدة ثم المنصوبات والمجرورات مثلا ، بل بعضها ممزوج ببعض كما رأينا ذلك وأنا أسرد أبواب الكتاب فينتقل من الفاعل إلى المفعول ثم بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر ، وهكذا .

ثانيا . لا يسير فى ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة فيقدم أبوابا من حقها أن تتأخر ويؤخر أبوابا من حقها أن تتقدم ، ويضع فصولا فى غير موضعها الطبيعى ، فهو يتحدث عن المسند اليه والمسند وكان من اللائق أن يستوفى أبواب المسند اليه من مبتدأ وفاعل وغيرهما ثم يعود إلى المسند ليستوفى أنواعه وأحكامه ولكنه لم يتبع ذلك ، وكثيرا ما تقول - وأنت تقرأ الكتاب - ليت ذلك الباب وضع هنا ، أوليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك .

ثالثا . يذكر سيبويه الباب العام ، ثم يعقد لكل مسألة من مسائله تقريبا بابا خاصا يعالجها ، فهو يعنون - مثلا - للتصغير ، ويذكر صيغه المختلفة ، ثم يعقد أبوابا للمسائل الجزئية فيه ، فتجد بابا لتصغير ما يكون على خمسة أحرف ، وآخر لتصغير المضاعف ، وبابا لتصغير ما كان على ثلاثة أحرف

ولحقته الزيادة للتأنيث ، وأبواباً أخرى لفروع التصغير المختلفة .

رابعا . يذكر مسائل في أبواب نضعها نحن تحت عناوات أخرى ، فمثلا هو يعد في أبواب الفاعل بابا للفاعل الذي لم يتعد فعله إلى مفعول ، وبابا آخر للفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول ، وبابا ثالثا للفعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين ، بينما نحن الآن نضع ذلك تحت عنوان الفعل المتعدي واللازم .

خامسا . لا يذكر دائما مسائل الباب الواحد سلسلة متصلة متتابعة ، بل يذكر بعضها في موضع وبعضها الآخر في موضع ثان ، بعد أن يفصل بينهما في كثير من الأحيان بأبواب أخرى ، وتذكر هذه المسائل لمناسبات تستدعيها .

سادسا . أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت بعد ، ومن أجل ذلك نجد نضع عناوين طويلة لأبواب ، وغالبا ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا ، فترى نفسك مضطرا إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها ، وقبلنا تجد عناونا مفهوما لك في هذا الكتاب ، وحسبك أن تعلم أنه وضع لإن وأخواتها هذا العنوان . هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده ، وهي من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التي بمنزلة الفعل ولا تصرف تصرف الأفعال كما أن عشرين لا تصرف تصرف الأسماء التي أخذت من الفعل وكانت بمنزلة ، ولكن يقال بمنزلة الأسماء التي أخذت من الأفعال وشبهت بها في هذا الموضع ، فنصبت درهما لأنه ليس من نعمتها ولا هي مضافة إليه ، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حمل العشرون عليه ، ولكنه واحد بين به العدد فعملات فيه كعمل الضارب في زيد إذا قلت هذا ضارب زيدا ، لأن زيدا ليس من صفة الضارب ولا محمولا على ما حمل عليه الضارب ، وكذلك هذه الحروف منزلتها من الأفعال ، وبعد ذلك كله يقول . وهي إن وإن وإن وليت ولعل وكان . ويضع عناونا لباب كان وأخواتها قوله . هذا باب الفاعل الذي يتعدي اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد .

ويضع عنوانا للمفعول لاجله قوله . هذا باب ما ينتصب من المصادر
لانه عذر .

ويدلنا على أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت أنه لم يضع
الاسماء الاشارة اسما ، بل دعاها الاسماء المهمة ، كما كان يدعو النسكين جزما
فيقول وجزمت لدنه ، ويسمى المقصور منقوصا ، وغير ذلك كثير .

سابعا . يذكر القاعدة وأمثلتها ، ويمزج ذلك بالتعليلات المنطقية ، وبيان
وجه القياس فيما يذكره من القواعد ، وعرض الآراء المختلفة في الموضوع الواحد .
ثامنا . يفرض فروضا يضع لها أحكاما فيقول مثلا (ص ٣ / ٢) ولو
جاء في الكلام شيء نحو أكل وأيقق فسميت به رجلا صرفته لانه لو كان
أفعل لم يكن الحرف الاول إلا ساكا مدغما .

تاسعا . لم تكن الابواب قد تميز بعضها من بعض التميز الكافي ، ويدلنا
على ذلك باب التمييز وباب التعجب مما لم يتحدد معالمه التحديد الواضح في
كتاب سيبويه .

دراسة باب من ابواب الكتاب

ولعل من الخير أن ندرس بابا من ابواب الكتاب لنرى في صورة أوضح
منهج الكتاب في التأليف وطريقته في تناول مسائل النحو ، ولنأخذ باب
الحال لنرى الفرق بين تناول سيبويه له وتناول المحدثين .

لم يضع سيبويه عنوانا للحال ثم يذكر أحكامه المختلفة كما نرى ذلك
مثلا عندما نأخذ كتابا كالتوضيح ، بل ذكر أحكام الحال موزعة في نواح
شتى ، وأول ما ذكر باب الحال في كتاب سيبويه كان بين ابواب المفعول
وعنون له سيبويه بقوله ، هذا باب ما يعمل فيه العمل ، فينتصب وهو حال
وقع فيه الفعل وليس بمفعول . وفي هذا الفصل أوضح سيبويه لم لا يجوز أن
يعرب الحال مفعولا . وبعد أبواب عدة تحدث فيها سيبويه عن كان وأخواتها وظن
وأخواتها والتنازع والاشتغال وإعمال اسم الفاعل والمصدر والصفة المشبهة ،
والمفعول المطلق وشيء من التمييز والتحذير والمفعول معه ، وعاد إلى المفعول

المطلق عرض بين أبوابه بابين من أبواب الحال ، عنون لأحدهما بقوله .
 هذا باب ما ينتصب من الأسماء انتصاب الفعل استفهمت أو لم تستفهم :
 وذكر تحت هذا العنوان حكم الحال عندما يكون عامله محذوفا ، وذلك مثل
 قولك ، أقانما وقد قد الناس ، وقدر سبويه أن العامل فيه فعل من لفظه
 كأنه يقول : أتقوم قائما ، قال السرافي . وأنكره بعض الناس لأن لفظ
 الفعل لا يكاد يعمل في اسم الفاعل الذي من لفظه ، قال المبرد . والقول عندي
 ما قاله سبويه ، لأنه قد تكون الحال توكيدا كما يكون المصدر توكيدا .
 وعنون للباب الثاني بقوله ، وهذا باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من
 الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل ، وذكر في هذا الباب ما يكون
 عامل الحال فيه محذوفا وليس من لفظه وذلك مثل قولك : أتمميا مرة وقيسيا
 أخرى ، أى أتدعى أو أتتحول وإنما ذكر هذين البابين بين أبواب المفعول
 المطلق لمشابهتهما له في أن عامله أحيانا يكون محذوفا كقول جرير : ألؤما
 لا أبالك واغترابا ، أى أتلؤم لؤما وتغترب اغترابا ثم عاد بعد ذلك إلى
 المفعول المطلق في أبواب كثيرة ، وانتقل إلى المفعول لأجله ، ثم عاد إلى
 باب الحال ، فذكر في أبواب شتى المصادر التي تعرب حالا سواء كانت نكرة
 أو معرفة ، والأسماء التي تعرب كالمصادر أحوالا مع أنها معرفة . وذكر
 هذه الفصول من الحال في هذا الموضع لأن الحال مصدر أو كالمصدر . وبعد
 أن ذكر بابا آخر في المفعول المطلق عقد بابا فيه مسائل مشتركة بين الحال
 والمفعول ، ثم عاد بعد فصل آخر ليس من باب الحال إلى ذكر أبواب
 للحال الذي يقع جامدا ، مما يدل على مفاعلة ككلمته فاء إلى في أو سعر ،
 والحال الذي يقع معرفته ، ثم انتقل إلى ظرف الزمان والمكان وباب الجر ،
 وباب النعت والعطف والبدل ثم عاد إلى باب الحال عندما يكون العامل فيه
 الابتداء مثل قولك : ماشأنك قائما ، وترك ذلك إلى النعت المقطوع وأطال
 فيه ، ثم عاد إلى باب الحال فذكر فصلا عندما يكون صاحبها خبر الاسم
 إشارة أو ضمير ، وفصلا آخر عندما يكون صاحبها معرفة ونكرة مثل

قولك : هذان رجلان وعبد الله منطلقين ، وبابا لما يصح أن يعرب حالا أو خبراً مثل هذا الرجل منطلق أو منطلقا ، وبابا لما يعرب حالا وكان في الأصل خبراً مثل : فيها عبد الله قائما ، ثم ذكر شيئا من باب المعرفة والتذكرة وعاد إلى أبواب أخرى من أبواب الحال . هذا إلى مسائل متناثرة منه هنا وهناك تذكر في أبواب أخرى لمناسبة بينها وبين هذه الأبواب .

هذه صورة لباب من الأبواب التي تناولها الكتاب ، ذكرت مسأله موزعة في أما كن شتى ، تبعاً للنسبات التي تستدعيها ، ولكن من الواجب أن أشير إلى أنه ليس كل الأبواب في الكتاب كباب الحال ، بل بعضها أفضل منه حظا فذكرت مسائلها متقاربة نوعا من التقارب ، كما كان بعضها أسوأ منه حظاً ، فعرضت مبعثرة متناثرة .

وعذر سيبويه في ذلك كله أمران ، أولهما أن ترتيب أبواب النحو الترتيب النهائي لم يكن قد تم بعد ، وثانيهما مارجحناه من أن سيبويه لم يضع كتابه في وضعه النهائي كما أسلفنا .

أسلوب الكتاب :

كتاب سيبويه كتاب موضوع للعلماء ، وهو من أجل ذلك موجز ، كل كلمة فيه موضوعة لمعنى ، فهو يشبه مع ضخامته - متنا من المتون ، ومن أجل ذلك وضع عليه العلماء كثيرا من الشموع ، وقد يستغرب أن أقول : إنه مع الإيجاز يلتزم جانب التفصيل والتوضيح لما يتناوله حتى يستوفيه ، ولكل لا محل للغرابة إذا ذكرنا أنه مع التفصيل يلتزم جانب الإيجاز أيضاً والذي ساعده على التفصيل تجزئة الموضوع إلى أبواب كثيرة يستوفى في كل باب منها مسألة يذكر قاعدتها وأمثلتها ويفرعا ويفرض فروضا يضع لها أحكاما ، ويذكر فيها الآراء المختلفة .

وهذا الإيجاز الذي تحدثت عنه يسبب في أحيان كثيرة غموضا وإبهاما

والتواء مما يحتاج إلى إعمال الروية والتأني في فهم غرض المؤلف ، ولست أرمى إلى أن المكتاب غامض غير مفهوم بل أريد أن أثبت أن الغموض واقع في بعض الفصول ، ولكنه في الأغلب واضح ، غير أنك لا تستطيع مع ذلك أن تقرأه إلا وأنت متريث على سهل ، وأسلوب الكتاب يرمى إلى التفهيم لا التأثير ، ومع ذلك لا أستطيع أن أخفي ضعف الابانية في كثير من صفحات الكتاب .

مصادر الكتاب :

وبعد فمن المستبعد أن يظهر كتاب شامل في النحو والصرف ككتاب سيبويه من غير أن يكون قد سبقته محاولات اقتبس منها ، وسار على هداها وهم يقولون لذلك إن سيبويه قد اقتبس من سبقه ولا سيما عيسى بن عمر الثقفى الذى ألف كتابين في هذه المادة سماهما الاكمال والجامع ، ويروون أن الخليل قال فيهما :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقر

غير أن هذين الكتابين لم يبقيا ، وعنى على آثارهما كتاب سيبويه ، ويظهر لى أنه من الحق أن نعد كتاب سيبويه ثمرة لكل الجهود التى قام بها العلماء والمؤلفون منذ بدأ أبو الأسود هذا النحو ، فجمع سيبويه ما تفرق فى كتبهم ، وما استشهدوا به من شعر ، ورتبه ونظمه ، وأضاف إليه ما سمعه بنفسه .

وهكذا يجب أن نفهم ما قاله ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل ، فليس معناه أن واحدا وأربعين إنسانا اشتركوا مع سيبويه فى تأليف كتابه ، ولكن معناه أن سيبويه قد انتفع بعلم من سبقه وقد كانوا كثيرا ، وبناتج أبحاثهم .

أما هذه الرواية التى نقلها ابن خلكان فى ترجمة عيسى بن عمر حين قال :

وأخذ سيبويه عنه النحو ، وله الكتاب الذى سماه الجامع فى النحو ، ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه وهو كتاب سيبويه المشهور ، قال ابن خلكان : والذى يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ، ولازم الخليل بن أحمد سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : صنف نيفا وسبعين مصنفًا فى النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأنت عندة عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين : أحدهما اسمه الاكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر الجامع ، وهو هذا الكتاب الذى اشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فإطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد : ذهب النحو ... الخ . أما هذه الرواية فنقوضة لا أساس لها من الصحة فيما أرى ، وهى أقرب إلى التأليف منها إلى الحق والصواب فغريب ألا توجد من مؤلفات عيسى سوى نسخة واحدة عند هذا الثرى ، وغريب أيضا أن تأتى الآفة على جميع كتبه غير هذين الكتابين ، هذا إلى أننى أستبعد على الخليل بن أحمد ، ومنزلته فى النحو منزلته ، ألا يكون قد اطلع على أهم ما خلفه عيسى بن عمر ، وأستبعد عليه ، وهو الرجل الذى يزن كلامه بميزان الذهب أن يتحدث عن كتابين لم يرها هذا الحديث الملىء بالكبار والاعجاب ، وأستبعد عليه أيضا أن يظل جاهلا أنه تليذه يقرأ عليه كتاب الجامع ليشرحه ويحشوه ، هذا وكتاب سيبويه ليس فيه ما يدل على أن أصله متن وشرح ، وإلكنه كتاب وضع وضعًا ابتدائيًا كذلك . وليس معنى هذا أنه لم ينتفع بكتاى عيسى ، بن عمر ، بل قد انتفع بهما وبغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن كل مؤلف محترم حتى عصرنا الحاضر — يريد أن يضع كتابا قيما ، فمن المحتم عليه ان يرجع إلى ما سبقه من الكتب يستفيد بنتائجها ونجارها ، ولا يعد ذلك عيبا فى المؤلف أو نقصا فى كتابه ، بل إنه ليعد ناقصا مقصرا إذا لم يرجع إلى الكتب المؤلفة قبله

استفاد سيبويه ومن حقه أن يستفيد من الكتب السابقة ، ونقل أيضا عن أساتذته الذين تحدثنا عنهم فيما مضى ، وكلهم من البصريين ، ولم يأخذ إلا عن الرؤاسي من الكوفيين ناقلا عن كتابه الذي سماه الفیصل - كما ذكر ذلك ياقوت - وأكثر من روى عنه الخليل بن أحمد ، وإن سيبويه ليقف منه في الكتاب موقف التليذ من أستاذه ، يسأله عن الأحكام والعلل وفروق القياس ، ويثبت إجابة الخليل ، بل لقد نقل إلينا في فصل من فصول الكتاب درسا من دروسه ، فقد عقد بابا عنوانه : هذا باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد ، ص ٦١ - ٦٢ ، قال : قال الخليل يوما وسأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والكاف التي في مالك والباء التي في ضرب ؟ فقليل له : نقول باء ، كاف ، فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف ، وقال : أقول : كه وبه ، فقلنا : لم ألحقت الهاء فقال - وهنا أوجه النظر إلى مثل من أمثلة القياس الذي كان يستخدمه الخليل - قال : رأيتم قالوا : عه ، فالحقوا هاء حتى صيروها استطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف ، فان وصلت قلت ، وب- ، فاعلم ياقتي ، كما قالوا : ع ياقتي ، ويمضى سيبويه بعد ذلك ناقلا أسئلة الخليل وأجوبته وأجوبة تلاميذه ونستطيع أن نأخذ من ذلك صورة لسير الدروس في ذلك الحين فقد كانت تسير على طريقة المناقشة لا الالتقاء .

ونقل سيبويه كثيرا عن يونس أيضا حتى لقد ينقل عنه أبوابا برمتها ففي الكتاب فصلان في التصغير نقلهما عنه وقال : وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس . كما كان يروى عن أبي الخطاب الأخفش الكبير . ويقول حدثني من أثق بعريته ، ويريد : أبا زيد ، كما سبق أن ذكرنا ، ويحكى أقوال أبي عمرو بن العلاء ويوازن بينها وبين قول الخليل ويونس ، وكان رائده الحق فلا يتعصب للخليل بل للصواب فنسمعه يقول أحيانا : وقول يونس أقوى ، وأحيانا يروى عن العرب مباشرة ويقول : إنه سمع منهم . وذلك كله يدل على سعة إطلاع سيبويه وتضلعه .

شخصية المؤلف :

استفاد سيبويه - ولا ريب - من الكتب المؤلفة قبله ، وأخذ عن أساتذته - كما ذكرنا - فهل أفنى كل ذلك شخصية المؤلف فأصبح جماعا ليس غير ؟

إن كتاب سيبويه لتطل منه شخصيته واضحة قوية فيما يأتي :
أولا : أسلوبه ، فالمعلومات قد يتلقاها المرء من هنا ومن هنا ، ولكن وضع هذه المعلومات في أسلوب خاص وطريقة خاصة من طرق التعبير هو ما يميز شخصا من آخر . يقول Buffon في حديثه عن الأسلوب : إن الموضوعات والمكشوفات تسرق بسهولة ، وتنتقل ، وتكتب أيضاً بأيدي أكثر مهارة ؛ إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل ، أما الأسلوب فالرجل نفسه . وإذا فشخصية سيبويه واضحة كل الوضوح في أسلوبه الذي صاغ به معلوماته التي أخذها من جميع المصادر المعروفة في ذلك الحين .

ويقول بعض المؤرخين إن الكتاب معقود بلفظ الخليل ، وهو ما لا أوافق عليه ، فالكتاب بين أيدينا معقود بلفظ سيبويه ، وما نقله عن الخليل أو غيره نسبه إليه في صراحة ، وقد تحدثنا عن أسلوب سيبويه فيما مضى .
ثانيا : تبويب الكتاب وتقسيمه وترتيبه ، وذلك من صنع سيبويه ، ولا نستطيع أن نعرف إلى أي مدى استفاد من تبويب الكتب السابقة ، لأنها لم تصل إلينا .

ثالثا : الاستنباط وحسن التعليل والبرهنة والتفريع ، وحظ سيبويه من ذلك حظ غير يسير ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من استنباط يسوقه ، أو تعليل يأتي به ، أو برهان يقدمه ، أو تفريع يذكر أحكامه المختلفة ، مما يدل على عبقرية ممتازة وشخصية قوية لا تسكتني بالنقل والتقليد .

شخصية سيبويه واضحة إذاً في كتابه كل الوضوح ، فالكتاب كتاب سيبويه ، كتبه بقلبه ، وصاغ أسلوبه بفكره ، واشترك فيما فيه من استنباط

وتعليل وبرهنة وتفريع ، وهل يعظم الخليل سيبويه إلا إذا كان قد رآه
آخذاً طريقته مجيداً للتعليل والقياس والتفريع .
شواهد الكتاب :

للكتاب مصدران من الشواهد هما القرآن الكريم ، وكلام العرب ،
وأشعارهم ، وأمثالهم وحكمهم ، وفي هذا العصر القديم احتاج العلماء إلى شعر
العرب يستنبطون منه قواعدهم ، ويثبتون به آراءهم ، وكانوا يستشهدون على
ذلك بأشعار الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين ، ثم اختلفوا في الإسلاميين
كجبرير والفرزدق ، والأكثر على جواز الاستشهاد بأشعارهم ، وكان أبو عمرو
ابن العلاء وعبد الله بن أبي إسحق والحسن البصري يلحنون الفرزدق والكميت
وذا الرمة ومن على شاكلتهم ويعدونهم من المولدين الذين لا يجوز الاستشهاد
بكلأهم ، وقد كان بين ابن أبي إسحق وبين الفرزدق خصومة ونزاع ، فقد
سمع الفرزدق يقول :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف
فراى أن مجلف في رفعها لا تناسب مسحاً في نصبها فاعترض على
الفرزدق ، فجهاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا
فاعترض ابن أبي إسحق على قوله مولى مواليا أيضاً ، وقال : بل هو مولى
موال ، وسمع قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضر بنا بحاصب كنديف القطن منشور
على عماثنا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجي ، مخهاير^(١)
فقال ابن أبي إسحق إنما هو رير ، وخالفه يونس ، فقال إن ما قاله
الفرزدق جائز حسن ، فلما ألحوا على الفرزدق قال : زواحف تزجها محاسير .
ولكن الثقات مجمعون على أن الاستشهاد بالشعراء جائز به وبطبقته ،

(١) مخ دار ودير أى ذائب فاسد من الهزال .

وبمن جاء بعده من المحدثين الذين ينتسبون في العرب ، ولم يتجاوز الثقات بهم مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية : روى ابن قتيبة عن الأصمعي أنه قال : ساقه الشعراء ابن ميادة (سنة ١٤٩) وابن هرمة ورؤبة (سنة ١٤٥) وحكم الخضرى وجميعهم من مخضرمي الدولتين : الأموية والعباسية .

هذا ، وقد كان البصريون يجهلون - كما ذكرنا - في أن يتعرفوا قاتل الشعر ، وخلوص عريته ، ولا يأخذون شواهدهم إلا من العرب الخلفاء الذين لم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأعاجم ، وهم يتثبتون قبل أن يستنبطوا أما الكوفيون فليس لهم ما هؤلاء من التدقيق والتحقيق .

وقد بذل سيبويه جهده في تخير شواهد كتابه ، وأخذ هذه الشواهد عن الجاهلية كزهير والنابعة ، والمخضرمين كحسان والخطبة ، وشعراء الأمويين كجرير والفرزدق والكميت وابن أبي ربيعة ، وابن قيس الرقيات ، وجميل والأخطل ، وأخذ عن الثقات : إن شعرهم آخر شعر يحتاج به وهم ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة بن العجاج ، فكان موقفه من هؤلاء الإسلاميين غير موقف أبي عمرو بن العلاء وصحبه . ولست أدري رأى سيبويه في بيت الفرزدق : مستقبلين شمال الشام . . . ولعله يوافق رأى أستاذه يونس ، من جوازه واستحسانه ، ولا رأيه في البيت الأول : وعض زمان ... أما رأيه في البيت الثاني ، فقد ذكره في الجزء الثاني من كتابه (ص ٥٨) وبين أن الخليل قد خرج على الضرورة الشعرية التي تحفظ ولا يقاس عليها .

أما موقف سيبويه من بشار فلم يستشهد بشعره في كتابه ، وروى أن سيبويه طعن على بشار في قوله .

فالآن أقصر عن سمية باطلی وأشار بالوجلّی علی مشیر
وفي قوله .

على الغزلى منى السلام فربما لهُوت بها في ظل مرءومة زهر

وفي قوله يصف سفينة .

تلاعب نيران البحور ، وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجري
وقال لم يسمع من الوجل والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونيان ، فبلغ
ذلك بشارا ، فغضب وهجاه وكنا يعلم مرارة لسان بشار - يقوله .
أسبويه يابن الفارسية ما الذى تحدثت عن شتى وما كنت تنبذ ؟
أطلت تغنى سادرا فى مساءتى وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ !
وأى هجاء أبلغ من حذف المفعول فى الفعلين . تعطى وتأخذ ، فيقال
إن سيبويه توقاه بعد ذلك ، وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ، ووجد له
شاهدا من شعر بشار ، احتج به استكفافا لشعره ، ولعل بشارا أراد أن
يحاسن سيبويه بعد أن أصبح يحتج بشعره فغير نيران البحور ، وجعلها
تيار البحور .

هذا ، وأما جمع نون على نينان فقد أثبت صاحب القاموس واللسان ،
وحكى السيد المرتضى فى شرح القاموس تخطئة سيبويه لبشار ، ثم قال .
واستعمله المتنبي ، وغلطوه أيضاً .

ثبت سيبويه فى اختيار شواهد كتابه حتى ليقال . إنها أصح شواهد ،
وقد انتقد بعضهم بعض شواهد ، فالمبرد فى كامله يقول . وقد روى سيبويه
بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين
المفتشين يميز مثل هذا فى الضرورة ، والبيت الأول هو .
هم القائلون الخير والأمرونه إذا ما خشوا يوما من الأمر معظما
والثانى .

ولم يرتفق والناس محتضرونه جميعا ، وأيدى المعتفين رواهقه
والبيتان المذكوران فى الجزء الأول من كتاب سيبويه فى باب إعمال اسم
الفاعل ، وقد رجعت إليهما ، فوجدت سيبويه يقول . واعلم أن حذف
النون والتنوين لازم مع علامة المضمر غير المنفصل ... وقد جاء فى الشعر

فزعموا أنه مصنوع ، ثم أورد البيتين المذكورين ، فسيبويه يخبر كذلك أنهما مصنوعان فلا وجه لاعتراض المبرد عليه .

وروى أيضاً أن سيبويه سأل اللاحق . هل تحفظ للعرب شاهداً على أعمال فعل ؟ قال اللاحق . فوضعت له هذا البيت .

حذر أموراً لا تضر ، وآمن مائس منجيه من الأعداء
وقد رجعت إلى كتاب سيبويه ، فلم أجد هذه القصة ، ولكنه أورد البيت شاهداً على أعمال فعل . وقد علق الأعم الشنتمري بعد أن ذكر قول من زعم صناعة هذا البيت بقوله : وإن كان هذا صحيحاً فلا يضر ذلك سيبويه لأن القياس يعضده ، وقد ألفيت في بعض ما رأيت لزيد الخليل بن مهلهل الطائي بيتاً في تعدى فعل وهو قوله :

أتاني أنهم مزقون عرضي جحاش الكرمين لها فديد

فقال : مزقون عرضي كما ترى ، وأجراه مجرى ممزقين ، وهذا لا يحتمل غير هذا التأويل فقد ثبت صحة القياس بهذا الشاهد القاطع .

وأقول بدوري : إن ذلك لن يكون مطعناً في شواهد سيبويه التي يبلغ عددها ألفاً وخمسين بيتاً ، حدث التاريخي عن المبرد عن المازني عن الجرمي قال : في كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتاً سألت عنها فعرف ألف ولم تعرف خمسون أي من قائلها ، وذكر الأستاذ الرافعي في هامش كتابه أن المرحوم الشنقيطي ذكر في حماسته المطبوعة أنه علم واحداً من هذه الخمسين وهو قول القائل : أبعد كندة تمدحن قبيلة ، فقال إنه لا مرىء القيس . ولكني رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدت هذا الشطر بالجزء الثاني (ص ١٥١) في باب نون التوكيد منسوباً إلى شاعر يسمى (مقنعا) ، ولعل الأستاذ الشنقيطي نسبته إلى امرئ القيس لما فيه من مدح كندة قبيلة الشاعر ، وذكر الأستاذ الرافعي رأيه فقال : والصحيح أن تلك الآيات التي منها هذا الشطر - موضوعه على امرئ القيس لنزولها عن طبقة ، وظهور الصنعة والتوليد فيها .

هذا وقد كان استشهاد سيبويه في كتابه بآيات من القرآن الكريم مدعاة إلى تخرج بعض العلماء أن يدرس الكتاب لغير المسلمين ، قال صاحب كتاب الوافي بالوفيات : وكان المازني في غاية الورع ، قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه فامتنع ، فقال له المبرد : جعلت فداك ! أترد هذه المنفعة ، مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى أن أمكن منها ذمياً ، وغيره على كتاب الله وحمية له .

سير الكتاب ودراسة النحو .

أصبح كتاب سيبويه بعد أن ظهر للناس برنامجاً لمن أراد الدراسة العليا في النحو ، وأصبح الطالب لا يعد مستكملاً هذا النوع من الدراسة إلا إذا قرأ كتاب سيبويه ، وصار اسم الكتاب يطلق عليه ، ويفتخر الطلبة بأنهم قرأوه ، ومن باهى بذلك أبو نواس وغيره من شعراء العصر ، وقد ذكرت فيما مضى مغالاة الناس بهذا الكتاب ، وحرصهم على دراسته سواء أكانوا من محبي سيبويه أم من خصومه ، ومن هؤلاء الأعلام الذين درسوا كتاب سيبويه في تلك العصور الأولى غير من ذكرناه فيما سبق - الجرمي والزيادي والسجستاني وأبو العباس المبرد وغيرهم ، ولم يكن يحسب العالم عالماً في النحو إلا إذا درس كتاب سيبويه كله ، قال أبو علي الفارسي ، جئت لأسمع من ابن السراج كتاب سيبويه وحملت إليه ما حملت ، فلما انتصف الكتاب عسر علي إتمامه ، فانقطعت عنه لتمكني من مسأله ، فقلت في نفسي بعد مدة : إذا عدت إلى فارس ، وسئلت عن إتمامه فإن قلت نعم ، كذبت ؛ وإن قلت لا ، بطلت الراوية .

العناية بالكتاب .

وكان كتاب سيبويه منذ تأليفه موضعاً لمراجعة العلماء ، منهم من يشرحه ومنهم من ينظم ترتيب أبوابه ، ومن هؤلاء ابن السراج الذي ألف كتاب

الأصول ، وقد جمع فيه أصول علم العربية ، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب كما أنه شرح كتاب سيبويه .

ومن شرح كتاب سيبويه أيضا سعيد بن المرزبان ، والآخر الصغير وأبو سعيد السيرافي كما قام بشرح شواهد يوسف بن سليمان الهنتمري . ولم يقف كتاب سيبويه عند حدود المشرق بل جاز البحر إلى بلاد الأندلس ، وقد عقد الأستاذ الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب فصلا تحدث فيه عن كتاب سيبويه في الأندلس : فذكر أن أقدم ما وقف عليه من حفظ كتاب سيبويه هناك هو حمدون النحوي ، المتوفى بعد المائة ، ثم ذكر من شهر بحفظ الكتاب وتدرسه وشرحه والتعليق عليه ، مما يدل على ما لاقاه هذا الكتاب في الأندلس من الاجلال وحسن التقدير تقديراً لا يقل عن تقدير أهل المشرق له إن لم يزد حتى كانوا يتنافسون في حفظه عن ظهر قلب ، وقد قام بعضهم باختصاره للطلبة المبتدئين ، ومن أشهرهم أبو حيان في القرن الثامن .

ما أخذه العلماء على سيبويه .

قال ثعلب : « يقول سيبويه في كتابه في غير نسخة : حاشا حرف يخفض ما بعده ، كما تخفض حتى ، وفيها معنى الاستثناء » ، وقد رد عليه الزجاج بأن ذلك في كتابه ، وهو صحيح ذهب في التذكير إلى الحرف وفي التأنيت إلى الكلمة . قال ثعلب : والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد فرد عليه الزجاج بأن كلا جيد ، قال الله تعالى : ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً ، وقرىء وتعمل صالحاً . وقال عز وجل ، ومنهم من يستمعون إليك ، ذهب إلى المعنى ، ثم قال : « ومنهم من ينظر إليك » ، ذهب إلى اللفظ وليس لقائل أن يقول : لو حمل الكلام على وجه واحد في الاثنين كان أجود ، لأن كلا جيد .

أما الفراء فكان يقول : إن سيبويه لا يدري حد التعجب ، ولقد رجعت

إلى الكتاب فلم أجد سيبويه قد استوفى حقاً أبواب التعجب وفروعه المختلفة وأما المبرد فيقول الأستاذ الرافعي : إنه أفرد كتاباً في القدرح في كتاب سيبويه والغرض منه ، ولم أطلع على هذا الكتاب الذي وضعه المبرد ، ولم أعرف النقط التي خالفه فيها ولكن ياقوت في معجمه ذكر أن عبيد الله القصري ألف كتاباً سماه الانتصار لسيبويه على أبي العباس في كتاب الغلط . وذكر الأستاذ جورجى زيدان أن أبا بكر الزبيدي ألف كتاباً سماه كتاب الاستدراك على كتاب سيبويه انتقد فيه مواد هامة ، وطبع في روما سنة ١٨٩٠ بعناية الأستاذ جويدي المستشرق الايطالى .

رأينا في الكتاب .

- ١ - الكتاب في نظرنا مرجع من المراجع نعود إليه عندما نؤلف كتاباً في القواعد العربية .
- ٢ - وهو صورة لآخر ما وصل إليه التقدم العلمى في النحو فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، لأن الكتاب كما قلنا - ثمرة لهذه الجهود المتصلة فى تلك المادة منذ بدأها أبو الأسود .
- ٣ - وهو صورة أيضاً لما كانت عليه دراسة النحو فى ذلك الحين من التعليل والقياس والاستنباط والتفريع واستيعاب الفروض .
- ٤ - وفى رأى كذلك أن كتاب سيبويه كان الكتاب الأول والآخر فى النحو ، فالكتاب سجل لقواعد النحو ، وقف العلماء عندها ، ولم يزدوا عليها ، وكل من جاء بعده جعل الكتاب أساس دراسته ووقف عند حد الشرح أو الاختصار ، ولم يزد المتأخرون على كتاب سيبويه إلا أن وضعوا الاصطلاحات التى كانت تنقصه - كما ذكرنا - وإلا أن رتبوا أبواب القواعد ترتيباً جديداً ، فالطبقة التى تلت كتاب سيبويه كانت طبقة الشرح والتكميل والتنظيم ، ثم جاءت من بعدهم طبقة أخرى ، اكتفت بذكر القواعد من غير أن تقرنها بعلمها وأسبابها وظل الأمر يتدرج حتى انتهى بهذه المختصرات

أو المتون التي احتاجت إلى شروح مطولة ، ثم احتاجت الشروح إلى حواش وتقارير وجدت مصدرها في كتاب سيبويه .

هـ - نقرأ كتاب سيبويه على أنه مرجع ومصدر ، أما أن نجمله أساس الدراسة مثلاً في عصرنا الحديث فلا ، لأننا بذلك نلحق تطور التأليف النحوي وما ناله هذا التأليف من التنظيم والتبويب منذ عصر سيبويه إلى وقتنا الحاضر .

ويا حبذا لو تضافرت الجهود ، واجتمعت القوى على إخراج كتاب فيه القواعد النحوية المبعثرة بمجموعة منظمة ، واستخرجنا من كتب السالفين ما فيها من جواهر مستورة ، ووضعنا ذلك كله في أسلوب جميل تزينه شواهد ممتازة ، ليكون عدة العالم في عصرنا الحديث . إن كتاباً كهذا يكون له من الأثر ما كان لكتاب سيبويه طوال هذه القرون المتعاقبة والله يهدي إلى سواء السبيل .

مراجع البحث

- ١ - كتاب سيبويه
- ٢ - أخبار النحويين البصريين للسيرافي .
- ٣ - الفهرست لابن النديم .
- ٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
- ٥ - نزهة الألباء لابن الأنباري .
- ٦ - معجم الأدباء لياقوت .
- ٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان .
- ٨ - بغية الوعاة للسيوطي .
- ٩ - كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان .
- ١١ - تاريخ آداب العرب للرافعي .
- ١٢ - تاريخ اللغة والآداب في العصر العباسي للسكندري .
- ١٣ - ضحى الإسلام لأحمد أمين .
- ١٤ - الأعلام لخير الدين الزركلي .
- ١٥ - إعجام الأعلام لمحمد مصطفى .
- ١٦ - كشف الظنون لحاج خليفة .
- ١٧ - La Littérature Arabe. Par Huart.
- ١٨ - Anthologie Gramaticale Arabe, Par S. De Sacy
- ١٩ - كتاب الاقتراح للسيوطي .